

متخيّل الذاكرة في رواية " نادي الصنوبر " لربيعة جلطي

The Imaginary Memory in the Novel
"The Pines Club" by Rabia Jalti

فاطمة قسول*

جامعة علي لونيبي بالعفرون - البليدة 2
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية - البليدة 2.
f.kassoul@univ-blida2.dz

تاريخ القبول: 2023/05/20

تاريخ الاستلام: 2021/12/13

ملخص:

يعتبر المتخيّل L'imaginair من أهم العناصر المهمة في الكتابة السردية، أضف إلى أنه أحد أهم عناصر الجمال في النص الذي يعتمد في بنائه على قالب في يتحد فيه ماهو واقعي اجتماعي إيديولوجي، بما هو تخيلي أدبي، والرواية الجزائرية لم تكن بمنأى عن الاستعانة بالمتخيّل السردية في متونها لتفعيل عالمها النصي، لتكون ربيعة جلطي من خلال روايتها "نادي الصنوبر" واحدة من الكتاب الذين خاضوا غمار التجربة انطلاقا من الواقع الجزائري إلى جانب تداعي الذاكرة والمتخيّل، والذي طرحنا في ظله الإشكال الآتي: إذا كانت الذاكرة بؤرة اشتغال ومرجعية تشكيل العالم الروائي في الرواية فكيف وظفتها الكاتبة؟ لنجد أن هذا التوظيف قد تم ضمن إطار في يقف على إمكانات جديدة في مستويات توظيف تقنيي الاسترجاع، والتداعي الحر وكذا الرؤية، وذلك بهدف خلخلة وتجاوز ما هو سائد.

الكلمات المفتاحية: المتخيّل، الذاكرة، الاسترجاع، التداعي الحر، الرواية.

Abstract:

The imaginary is considered as one of the most important elements in the narrative writing. In addition to being one of the most important aesthetic component in the text, which is constructed on an artistic template in which what is realistic social and ideological combines with what is literary fictional. The Algerian novel was not immune to the use of the narrative imaginary to activate its textual world. Rabia Jalti, for instance, through her novel "Club of Pine", is one of the writers who experienced this beganing of the Algerian reality, in addition to the falter of memory and imagination. All within a research framework that stands on new capabilities in the levels of the technique as well as the vision, in order to perturb and transcend what is prevalent

Keywords: Imaginary, memory, retrieval, free association, novel.

1. مقدمة:

يُولي الخطاب النسوي الروائي اهتماما ملحوظا بقضايا الأنثى العربية وتطلعاتها، وطبعا تشكيل عوالم موضوعاتية خاصة بالمرأة يتطلب توظيف بعض التقنيات الفنية التي تجد في ظلها الكتابات ملاذا للبوخ وكشف هواجسها ومخاوفها، وبعدّ فعل الذاكرة إحدى أهم التقنيات حضورا عند الروائيات الجزائريات بوصفه تقنية سردية ويوصفه أيضا مادة حكاية، ومن يقرأ (نادي الصنوبر)، يخرج بانطباع أولي أنها اعتمدت في بناء تضاريسها التخيلية على فعل الذاكرة لنسج عوالمها التصويرية، متخذة من الترحال بين الزمن الماضي والزمن الحاضر مطية لتشكيل كينونة ساردها، والتعبير عن حاضره الذي أنهكه البعد، وتصبح الرواية برمتها عبارة عن استقراء الشعور المترسب واللامنسي للحاجة عذرا، "فلاشتغال على الذاكرة في النص الروائي، لا يعني استنساخ المرجع الواقعي بحرفيته، لأن الذاكرة بالأساس ليست سوى عملية انتقائية وتأويلية، والارتكاز على الذات في هذه الكتابات، يستبطن جدلا بين الأنا والآخر، والداخل والخارج والذاتي والموضوعي، ولا تعني قوة الإحالة المرجعية في هذه الكتابات المنعدمة الصلة بالتخييل، فكثيرا ما اكتسبت ذات المؤلف أبعادا نفسية ورمزية تنشأ داخل فعل الكتابة، وكثيرا ما اتسمت وقائع حياته، بسمات تخيلية لم تكن لها في الواقع المرجعي التاريخي، ذلك أن الكتابة وإن جعلت همها الأول التعريف بالذات وسرد قصة حياتها، هي دائما خلق للذات وانبعث لها جديد، وتتجلى قوة الإحالة المرجعية في ضمير المتكلم "أنا" المرتبط عادة بالذاكرة الذاتي"¹.

وفي هذا الإطار نسعى للوقوف على الإشكالية الآتية: إذا كانت الذاكرة بؤرة اشتغال ومرجعية تشكيل العالم الروائي (لنادي الصنوبر)، فكيف وظفتها الكاتبة؟ وكيف تعاملت مع ذاكرة المكان (الصحراء)، ونسجت تموجاته وتضاريسه وحدوده الواقعية؟

إنّ الهدف من تتبعنا لتفاصيل خطوط توظيف تقنية فعل التذكر في الرواية، باعتباره عنصرا أساسيا في بناء ديناميكيتها وتشكيل زخرفها اللغوي وحسها الجمالي، يرمي إلى تبيان أثر تعاطي الحاجة عذرا مع ماضيها الطارقي من أجل التعايش مع عالم جديد لا يشبهها.

2. عثمان بالي وإهداء الذاكرة:

"إلى عثمان بالي، زرياب الطوارق.. جرفتك

مياه وادي جانيت ذات طوفان.. فارتفعت نجما..

تطل من عليائك على الصحراء"²

يطالعنا إهداء ربعة جلاطي كثيرا تنغيا موضعة النص في فضائه الاجتماعي والفني، ومؤشرا على إيماءة الرواية حيال مرجعها ومكنية عن رغبة المؤلف، بإهدائه عمل ليال طوال إلى "عثمان بالي"، الأيقونة الصحراوية الإبداعية التراثية، والذي أفضى لنا إلى شطر العمل الإبداعي إلى (متن وهامش)، حيث احتلت فيه الأنثى المتن المركز، مما دفع بالرجل إلى الهامش، فالحاجة عذرا الشخصية الروائية الأكثر تعبيراً عن الثقافة الطارقية، والتي تكشف من خلالها الكاتبة عن عمق المرأة الطارقية المنتسبة إلى الملكة تينهان، وتقديس مجتمعا لها، وتباهيها بفرديتها

وحريرتها وبلغتها واعتزازها بجذورها وأصولها، كانت محور اهتمام النص، في حين أننا لم نجد للرجل الطارقي مكانا، ما عاد صورة مبسطة عن زيه المثلث وسلاحه الموضوع على خصره، ما جعل ربيعة جلطي تقرّر إلغاء هذه الثنائية، وذلك من خلال الإهداء لتعديل هذه الثنائية، والانتصار للرجل الطارقي عبر هذا الفنان الذي عانق آلة الإمزاد، وعزف على وترها أحلى الأغاني الممزوجة بالحكمة التي تكمل تعويذاتها الخالدة، والتي غناها بروحه قبل صوته عشقا للموروث الايموهاغي العريق، الذي جعله يتمرد على مجتمعه المعاصر، بأن الغناء والرقص والعزف على الامزاد حكرا على المرأة وحق من حقوقها.

ففي ثقافة الطوارق الآلات الوترية هدية الصحراء للنساء، ولا يحق لأي مخلوق من أي جنس آخر عدا النساء أن يلمسها أو يتجرأ على اللعب بها، ومن يفعل ذلك تحلّ عليه اللعنة، ليكون هذا التمرد مسوّغ التحرر لدى الرجل الطارقي من نسق مركزي مهيم ثقافيا، جاعلا من تجرّبة الفنية حافلة بالتميز، وعامرة بالألق، الذي أسر ربيعة جلطي فجعلته رمز ذاكرة كل الأحرار، "كبناء فاعلي تخزيني وذخائري لها مرجعيات تؤطر الشكلية التي تتخذها فقد تكون الذاكرة سياسية أو اجتماعية أو تاريخية أو أدبية، وهذه الأخيرة تفترض وجود البعدين الواقعي والافتراضي لكي تؤدي وظيفتها الفنية داخل السرد، على وفق الوعي باللحظة الراهنة للحاضر، وهذا الوعي يظل في حركته جاريا ولا تحدده أفكار تعسفية عن الزمن"³.

3. الذاكرة والسرد الاسترجاعي :

الاسترجاع تقنية زمنية يحتفي النص الأدبي بتوظيفها، إنّه ذاكرة النص التي يتحايل الراوي من خلالها على تسلسل الزمن السردية، حيث يترك "مستوى القصة الأول ليعود إلى بعض الأحداث الماضية و يرويها لاحقة لحدوثها"⁴، وعن حديثنا عن خصوصية هذه التقنية في السرد الروائي النسوي فنجد أنه ثمة " ما يشبه اللازمة أو القانون في كفاءات أداء الرواية النسوية الجزائرية عبر نماذجها المختلفة لهذه التقنية، هو أنّ كثيرا من الروائيات تؤثرن التصريح بالفعل المؤذن بانفتاح الذاكرة، ضمنا لتواصل القارئ مع كتابات المرأة، التي غالبًا ما تسرد حكاياتها من باطن الذاكرة المؤنثة، مما يجعل الاسترجاع والتداعي الحر سمة مميزة لإبداعها، تتوالد من خلاله تلك المتتاليات السردية المتناسلة في نفسها، و تشرك المرأة جميع حواسها، تركزها للإصغاء إلى نبض الذاكرة، عن طريق المشاهد والاسترجاعات والوقفات المنولوجية التي تستوطن مخيلتها وتحكي حكاياتها، تاريخها وواقعها، وتشيد العلاقة بين ما كان وبين ما ينبغي أن يكون ، وهذا يعني أنّ الرواية النسوية الجزائرية غالبا ما تعتمد على الاسترجاع عبر انفتاح ذاكرة الشخصيات الروائية، ولعل مرد ذلك إلى كون الماضي مخزونا ومنسوجا في الذاكرة، وتستدعيه اللحظة الحاضرة على غير نظام أو ترتيب كلما تطلب الأمر ذلك"⁵

تسلط ربيعة جلطي في روايتها الضوء على المجتمع الطارقي الجزائري الغني بإرثه التاريخي، الثقافي والشعبي، حيث تنقلنا إلى الجنوب الجزائري وعالم الصحراء سحرا وجمالا وأسرا، عبر ذاكرة المرأة الطارقية " الحاجة عذرا"، التي تعتمد على استرجاع ذكرياتها الصحراوية الماضية كعملية ذهنية تتولد عنها الصور، هذه الأخيرة التي تنشأ عن

طريق عملية استرجاع الإحساسات في حالة غياب الأشياء التي تثيرها ، وهكذا تشتغل "المخيلة الروائية وفق عملية استرجاعية تتفاعل خلالها ذاكرة الفرد بالذاكرة الشعبية حيث نشأت واتصلت بالعالم"⁶ ، فمن ذاكرة الحاجة عذرا هابط من الحاضر نحو الماضي ، ولذا تعتمد الكاتبة إلى استعادة الماضي، من خلال فعل التذكر وفعل الاسترجاع. .. كلما جاءت الحاجة عذرا لتحضر جلسة الشاي، تجعلنا روائح العطور نسافر بعيدا كلما انزلت ككل جلسة شاي في الحديث عن المراتع البعيدة العزيزة لطفولتها وشبابها"⁷

فالماضي الطارقي هو عالم الحاجة عذرا وشخصيتها وإباؤها وشموخها، الذي يشبه إبريق الشاي الفضي حين يرتفع عاليا، عالمها الذي تشضت معالمه باحتكاكها بواقع مدني أرغمت على التعايش معه، إلا أنها لم تستطع الاضمحلال فيه، لما لمستته من تشوه لم تتألف معه إلا ظاهريا إرضاء للصلات الاجتماعية، واستطاعت الانفلات من زيفه، عبر ذاكرتها التي تفتح لها نافذة لاستنشاق عبير الماضي الصحراوي الطارقي الأصيل، الكاشف "المعنى وعيها المكاني والزمني والذاتي والانتمائي، إلى موقع حضورها الراهن كحلقة للترابط السردية"⁸ فهذا التواصل مع الماضي عبر الذاكرة يتجلى في إطار طابع وصفي، فهو "المحرك الميداني الفعلي للحراك السردية داخل فضاء الحكيم والقصة، لا يتوانى فيه الراوي عن التفصيل في كل مفصل ذاكراتي، بصرف النظر عن الوظيفة السردية الدقيقة لهذه التفاصيل في التشكيل العام للقصة، فثمة حاجة نفسية عميقة، تفرضها الحال الحكائية المهمومة بسحب الذاكرة إلى منطقة الحلم"⁹ ، حلم العودة إلى عالمها الذي يشبهها ويسكن سويداء قلبها.

" منذ أن وطئت عاصمة بلادها ظلت عذرا تفكر في الرجوع عند أهلها، ولكن لعنة العواصم أصابتها"¹⁰

تھيم الحاجة عذرا بذاكرتها منذ اللحظة الأولى، وهي تفتح باب شقة البنات بالمتاح لتوقظهن، داعية إياهن بنات تاع زمان، مهياة قعدة شاي ذات نفس صحراوي ، مشعة بلباسها الطارقي الذي لم تتخل عنه، ولم تستطع حضارة المدينة أن تسلبه إياه، ورائحة عطرها التي عبقت المكان والتي لا تشبه في شئ العطور الفرنسية، لتسترسل في الحديث دونما وعي منها عن أيام الصبا والشباب.

" تضحك عذرا وهي تتأمل الكأس، ثم وكأنها فجأة تغيب بعيدا وتنطق بكامل وعيها:

وأنا صغيرة، كان جدي سيدي محمد بن امبارك يرفع " البراد" عاليا جدا...آه يا عذرا ستصبحين ذات مال كثير حين تكبرين.."¹¹

تواصل الحاجة عن طريق انفتاح ذاكرتها استرجاع أحداث حياتها وهي صغيرة، في أول يوم وجدت نفسها فيه زوجة لـ"عبد" الخليجي الثري الذي هام بحبها، وأول ما تذكرته عندما استيقظت ووجدت نفسها في قصره، عصاها التي لطالما تخيلتها أنها جواد تمتطيه، وهي فارسته التي تجنح به إلى السماء، ويخلف أثرا على الرمال. "نعم أنا عذرا الفارسة الأصيلة، سأظل عذرا ابنة الطوارق أبناء السماء المفتوحة، حاملة صهيل دمهم، أهلها الذين لن يغيبوا ولن ينتهوا.."¹²

وكأنها منذ أول يوم وجدت فيه نفسها بعيدة عن عالمها تقاوم النسيان عبر فعل التذكر، الذي كان "خاضعا لسطوة الذاكرة وجبروتها، واختياراتها الخاضعة إلى منطق سيكولوجي بالدرجة الأولى، مما يضطره إلى ملأ فراغاتها

عن طريق التخيل الاسترجاعي كعملية ذهنية تتولد عنها الصور، وقد تنشأ هذه الصور الذهنية عن عملية استرجاع الإحساسات في حالة غيبة الأشياء التي استثارت هذه الإحساسات¹³، فالذات الساردة عمدت على إعادة تمثيل ما عاشته وفق قالب سردي يبني على المفارقة من حيث بناء الأحداث، ويتأسس على رصد دقيق للداخل المثقل بالانفعالات والعواطف، وبين آني لم تتقبله ووجدت نفسها أول ما فتحت عينها في حوار مع النفس عن مكان تواجدها الذي لا يشبهها وماذا تفعل فيه.

"- أين أنا

... انتظرت لحظة ... لحظات كي يصفوا ماء الذاكرة الذي بدا مكدرًا، أعادت دفن رأسها الصغير بين الوسائد اللينة.. وسقطت دمعتان متهبتان حارقتان... إيه يا عذرا .. أضحت بعيدة أرضك .. أضخوا بعيدين أهلك.. لست في صحرائك"¹⁴

فالارتداد لفعل التذكر كان أيضا لمقاومة نسيان من خولت له نفسه التشكيك في ما فعله أجدادها لأجل ترسيخ تواجد الطارقي، وتأكيدها على ذلك جاء إثر تأملها لزخرفة سقف غرفة القصر الذي أصبحت تعيش فيه، والذي يعود إل الاحتلال كما أبلغها زوجها عبده، فالتاريخ الذي يسكنها شاهد على عمق ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم حياتهم.

" تاريخنا لا نخشى عليه النسيان، لأنه يهدأ بأرحام النساء، في صحراء ممتدة سماؤها... " ¹⁵.

كما عادت بذكرياتها وهي تجول بناظرها في كل أرجاء الغرفة ووقع بصرها على كتب أغلفتها مكتوبة بخط لم تعهده، لتعتر بكونها طارقية لا تعلم غير حروف التيفيناغ التي علمتها إياها والدتها .

" ترسم أومي حروف التيفيناغ، وأجلس بين يديها أردد بعدها بعناية واهتمام، وبصري لا يبرح الحروف المنصهرة قي قلب الرمل الملتهب"¹⁶.

وإن كانت في الآن ذاته تسعى إلى كبح حنينها وشوقها لعلمها، عبر شنها حربا على ذاكرتها المثقلة بها، والتي تأتي الانصياع لها، بزجها في واقعها الجديد وإشغالها بما تعلمته من أدب وعلوم ولغات في محاولة يائسة للهروب. " ... لم تضع منها يوما واحدا، لم تملأه بما يطفأ عطشها للمعرفة، وفك رموز العالم المجهول حولها، وما يمكنه أن يخفف عنها الصراع مع الشوق والحنين.. كأنها تشن حربها على الذاكرة، أو تلاعبها لعبة الغميضة، ظلت عذرا تملأ تجاويف الذاكرة بما تتعلمه من جديد"¹⁷.

فاتكاء النص على تقنية الاسترجاع عبر فعل الذاكرة، قد عزز من مهمتها الأساسية التي تتعلق بالجانب النفسي للفرد، والتي تقوم على " معاينة عملياته العقلية أو المعاينة الذاتية المنتظمة، حيث يقوم الإنسان بفحص أفكاره ودوافعه ومشاعره، والتأمل فيها أشبه ما يكون بتحليل الذات، والتأمل في الخبرات الماضية يوازي تذكر الماضي والأحداث الماضية بطريقة غير مباشرة، لأن عملية الاستبطان تتم في أعقاب حالة الخبرة، والمعايشة وبعد استقرار عناصرها في الذاكرة"¹⁸، فالحاجة عذرا تحت وطأة حالة نفسية، جعلتها تن من الوجد على فراق

صحرائها وخيمتها، وتشعر بالاختناق حينها للحديث بلغتها (التماشاق)، حين حاربه بكبح ذاكرتها عبر ملء تجاوبها بالمعرفة والعلوم .

" أحيانا أشعر بأنني خنت صحرائي، وأحيانا أخرى أتلمس منبع قوة في داخلي تقول لي أنني النبوة التي ستعيد للطوارق مجدهم.. " ¹⁹

" تشعر عذرا بالاختناق كلما طال بها الأمد دون أن تعبر حروف التماشاق رثيها، وحلقها، ومخارج حروفها" ²⁰ وعليه فإن الحالة النفسية للحاجة عذرا هي من جعلت رواية "نادي الصنوبر" تقوم على أسلوب التذكر والتداعي الحر، الذي يستند على تقنية الاسترجاع، والذي يتيح لربيعة جلاطي سبر أغوار المجتمع الطارقي والإفصاح والبوح عن أسراره، "فالذاكرة والاسترجاع يساعد في نبش الأسئلة الممكنة المستفزة للحاضر، ليبقى السرد بعد ذلك اشتغالا على الكتابة بوصفها لحظة تخيلية قائمة بذاتها" ²¹، الحاضر الذي تأبى الحاجة عذرا أن تسكنه، إذعانا منها أنه لا وجود لعالم يشبه عالمها الصحراوي الصافي، المنعق من لفحات التشوه الذي طال المدينة .

" عالم حين تدخل إليه وتغلق بابه خلفها، فكأما قطعت برزخا يفصلها عن عوالم هذه المدينة المكتنزة بكل شئ، الفارغة من كل شئ، مدينة واسعة وضيقة في الوقت نفسه، ينخر أهلها النفاق، والتمظهر والكذب، والحيلة، والظلم، وأشياء أخرى تبحث لها عذرا عن نعوت تليق بها" ²²

فرفض الحاجة عذرا لعالمها الجديد، جعلها تستكين لذاكرة ماضيها وذكراياتها التي تعيشها بشعورها وكيانها، والتي صنعت مصيرها بطلبها لحررتها والعودة إلى بلادها، وإلا ستفقد روحها جراء الوهن الذي أصابها، فهي الحرة سليمة الأحرار.

"حياتنا نحن الطوارق مرآة لاسمنا الأصلي العريق "إيموهاغ" الاسم الذي مازال يشبهنا ويدل علينا الأحرار" ²³ ليتحقق لها العود وتجدها نفسها نزيلة المدينة مرة أخرى، أين هيأ لها طليقها إقامة بعاصمة بلادها في أرقى أحيائها (نادي الصنوبر)، وتجدها نفسها مرة أخرى سجيناً لذاكرتها وذكراياتها، ومن هنا "فإنّ أغلب المقاطع الاستراتيجية الواردة في النصّ- تبرز كنقطة تحول حاسمة في حياة الشخصية الحاضرة، بدفع وتأثير من حياتها الماضية، وهنا يلعب الماضي دوراً مؤثراً وفعالاً في توجيه سلوك الشخصية ومعرفة مرجعياته، وبهذا يتحول الاسترجاع إلى طاقة محرّكة لنمو الأحداث ووسيلة للتحكم في الواقع المعيش واستشراف المستقبل" ²⁴.

4. الصحراء ذاكرة المكان ومكان الذاكرة:

شكّل متخيّل الصحراء مؤخرا وعيا كتابيا أدبيا، أضفى على النص خصوصية بامتداده الذي يأسر القلوب، وألهم الشعراء والروائيين، وجعل قرائهم تجود بصور التيس من خلالها الواقعي باللاوعي، الممكن باللاممكن، الحقيقة بالسحري، لتسرق الأضواء من المدينة، التي ظلت لدهة من الزمن تشكل مركز الكتابة، وتكسر السائد والمتعارف عليه، وتحول نفسها من الهامش إلى مركز تعوّل عليه الرواية جمالياً وشعريا، "فالروائيون الجزائريون، على اختلاف توجهاتهم اهتموا بمتخيّل الصحراء، ووظفوا جمالياته في أجساد نصوصهم وتمفصلات سرودهم، بدءاً من عتبة العنوان، ومروراً بالشخصيات والأحداث والتوظيف المشهدي، وصولاً إلى لغة المكان وذاكرته وتفصيل

تفاصيله²⁵، و"نادي الصنوبر" لربيعه جلطي احتفت بالصحراء ذاكرة للمكان ومكانا للذاكرة، مركزة على الدور الذي تلعبه على مستوى الأحداث وعلاقتها بالشخصية الرئيسية التي يرتبط وجودها به، فامتدادها واتساعها يشكل غموض الحاجة عذرا، وإثارتها وحقيقتها حضورها الإنساني والجسدي،" فسيرة المكان لا تنفصل بشكل من الأشكال عن سيرة الكائن، بل لا نستطيع أن نفهم تلك السيرة إلا إذا أدركنا العمق الذاتي لسيرة الكائن الذي يطلق روحه وذاته في المكان بقدر ما يطلق المكان روحه في ذلك الكائن ليصبح الاثنان تكوينا واحدا يكتب تاريخ الوجود²⁶، فالطارقية عبر استحضر جغرافيتها الصحراوية، بعاداتها وتقاليدها وثقافتها تنسج عمرا آخر لعمرها المهدور، بزواجها بالخليج واستقرارها بعد طلاقها في نادي الصنوبر، إنه فضاء الذات الذي يتجسد عبر ذاكرة المكان والذي تسرد من خلاله هويتها وكيانيتها.

"الحق يقال إنه جو تصنعه الحاجة عذرا بمنتهى الدقة والبراعة، تستحضر جغرافيتها الصحراوية التي نحن إليها تستقدمها من الذاكرة"²⁷

فصحراء الطوارق، صحراء الجغرافيا والعادات والتقاليد والأعراف والثقافة والتاريخ وأثرته، وتوصيف السارد لها جعلها "تمهية للمتلقي حالة من المعرفة تتعلق بمظاهر العالم الخارجي المنطبعة في ذاكرته وحيرته وتمكنه من ربط معرفة بالوجود الخارجي بالمكان"²⁸، وتجعله يحرق بخياله في عمق حياة الطوارق.

فحس الصحراء بلاغة تشكيل ذاكرة الحاجة عذرا، كان حاضرا برماله وكثبانه وجباله وتضاريسه، التي يستكين لها الطارقي ويسلم للفحات شمسها الحارقة بزبه الذي يشبه روح المكان .

"البارحة اشترت زوخا صورة كبيرة لرجل طارقي ملثم بزبه الأزرق الغامق وهو يرقص بسيفه فوق أرضية الرمل"²⁹
"نراء الطارقي عبر التاريخ ما يملك من وقت يطاء فيه رمل الصحراء، كل سلاحه التابوكة سيفه على يسار خاصرته، وعلى يمينها خنجره المزحرف مقبضه.. عز الفارس الطارقي حين ينتصب على ظهر جواده أو على مهاربه البيض"³⁰

فالصحراء بحسها كانت أيضا منبعًا ومرتعًا لعادات وتقاليد استمدتها الطارقي من وحي صحرائها، كطريقة تحضير الشاي وهو "فضاء متخيل تحتفظ ذاكرة البطلة ببعض تفاصيله الأسرة، حيث يحرك طقس جلسة الشاي ثنايا كتاب مخزون حافل بأخبار أهل الصحراء الذين لا يُشبهون بعاداتهم وطقوسهم أي مجتمع آخر، وخصوصا في الاحتفاء المرأة ومنحها قيمة مضافة"، ومن العادات أيضا حفلات الطلاق، حيث أن خلاص المرأة من الرجل ومن حياتها معه يعني بداية حياة أحسن وأجمل.

" تصف الحاجة عذرا وهي القديرة على الوصف حفلتها، كانت لا تنسى، ولا مثل لها بين حفلات الطلاق في تاريخ النساء الطارقيات"³¹

حس الثقافة والتاريخ هو الآخر له علاقة وثيقة بالمكان وتشرب من واقعه وأحلامه وغاياته، ويتجلى ذلك من خلال "التيفيناغ" الأجدية التي يستخدمها الطوارق لتدوين لغاتهم والتعبير عن طقوسهم وشعائرهم الدينية، والتي

تعلمها الطارقيات لأبنائهم لتحفظ ثقافتهم وتاريخهم، ولغة "التمشاق" التي يتلون بها أشعارهم التي تحتضنها آلة الإمزاد، ويعزفها وترها الوحيد.

"رغم العواصف الرملية، وتحرك الكثبان، وتغير التضاريس، تظل كتابة التيفيناغ التي تعلمه الطارقيات لأبنائهن واقفة ضد النسيان"³²

"تنظر إليها عيون جلسائها بإعجاب، وهي تتلو أشعارها، أشعارها لا تليق بها غير لغة "تمشاق"³³

"كثير ما تحتم جلساتنا المؤنسة، فتعزف على آلة الإمزاد ذات الوتر الوحيد، يخرج آهات متواصلة، تضع الآلة في حجرها تمر القوس الصغير.."³⁴

ووفقا لذلك " لا بد أن ينظر إلى المكان على أنه تكوينات أو بني أو حالات معرفية ووجدانية تكون موجودة لدى الأفراد والجماعات وتصمم على نحو واضح في تحقيق إحساسهم بالهوية الفردية والجماعية، وفي استمرارية وجود هذا الإحساس لديهم"³⁵.

فبعودتنا إلى عنوان الرواية نظن أن " نادي الصنوبر " هذا المكان الراقي الموجود في الجزائر العاصمة، سيكون مسرحا للأحداث ومركزها، غير أننا ومن خلال ما سبق وجدنا أن هذا الفضاء المكاني لم يحضر إلا من خلال توصيف الشخصية "مسعود" الحارس لفيلا الحاجة عذرا، وشرحه لتفاصيل الإقامة فيه وما يحدث داخل أسواره العالية وبواباته الموصدة في وجه العامة من بسطاء الشعب، ليتحول إلى مكان هامشي في مواجهة الصحراء التي طغت على تفاصيل السرد ووجدت نفسها في علاقة جدلية مع المدينة تجسدت عبر ذاكرة الحاجة عذرا .

4. خاتمة:

إنّ نادي الصنوبر ذاكرة الإرث الشعبي والثقافي والتاريخ الطارقي، الذي شكل مادة تخيلية خام، نابذة من عمق الصحراء بامتدادها الشاسع الأسير لحين ماضي الحاجة عذرا الذي تتواصل معه عبر ثقوب الذاكرة .

وفقا لما سبق نصل إلى النتائج التالية :

- توظيف فعل الذاكرة اتكأ على تقنية الاسترجاع الزمنية والتداعي الحر.
- سرد الذاكرة ، ذاكرة أنا الحاجة عذرا الطارقية وسيلة اتخذتها للتعيش مع الحياة المدتية المزيفة.
- يعبر فعل التذكر عن الحالة النفسية التي تعيشها الحاجة عذرا، فبعدها عن صحرائها وإرثها الطارقي الذي يغذي روحها، ولّد داخلها اغترابا نفسيا.
- احتفت الرواية بالصحراء ذاكرة للمكان ومكانا للذاكرة، وكان لها الحيز الأكبر على مستوى الأحداث وعلاقتها بالشخصية الرئيسية التي يرتبط وجودها بها.
- الوجود، الكينونة، الهوية عنوان فعل الذاكرة الذي تعيش بها ومن خلالها الحاجة عذرا.

5: الهوامش

- 1: حنينة طبيش، اشتغال الذاكرة في الكتابة النسائية، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد: 08، ع/02، السنة 2019، ص:127
- 2: ربيعة جلطي، نادي الصنوبر، منشورات ضفاف والاختلاف، ط/2، 2017، ص:5
- 3: روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، تر: محمود الربيعي، دار المعارف بمصر، ط/2، 1975، ص:430
- 4: سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية، دار التنوير، بيروت، ط/1985، 1، ص:40
- 5: أحلام مناصرية، تقنية الاسترجاع في رواية "السماك ال بيالي" لإنعام بيوض، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، ع/51، جوان 2019، ص:267
- 6: مراد علوي، جدلية الحلم والواقع " في رواية شمس القراميد" لمحمد علي يوسف، الدار التونسية للكتاب، د/ط، 2013، ص:10
- 7: الرواية، ص: 10
- 8: عبد الرضا علي، 2020، دراسة في رواية (سيدات زحل) للطفية الدليمي تداعيات استعادة الذاكرة ومواقع تداخل الذاكرة الروائية، <https://kitabab.com/2020/07/02/>
- 9: محمد صابر عبيد، جدل الذاكرة والتمثيل مقارنة في سرديات صبري يوسف، دار غيداء للنشر والتوزيع، المملكة الهاشمية الأردنية، د/ط، 2016، ص: 111
- 10: الرواية، ص: 96
- 11: الرواية، ص: 10/9
- 12: الرواية، ص: 132
- 13: عبد الله شطاح، خطاب الذاكرة رهانات التخييل والتجنيس، مجلة المدونة، جامعة البليدة 2، الجزائر، ع/1، أكتوبر 2014، ص:17
- 14: الرواية، ص: 131
- 15: الرواية، ص: 133
- 16: الرواية، ص: 135
- 17: الرواية، ص: 93
- 18: مها حسن القصاروي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط/2008، 1، ص 192 .
- 19: الرواية، ص: 137
- 20: الرواية، ص: 137
- 21: الأخضر بن السائح، سرد الجسد وغواية اللغة (قراءة في حركية السر الأثنوي وتجربة المعنى، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط/ 1، 2011، ص:30.
- 22: أحلام مناصرية، تقنية الاسترجاع في رواية "السماك ال بيالي" لإنعام بيوض، ص:270

²³: الرواية، ص:102

²⁴: الرواية،ص:139

²⁵: حميد عبد القادر، حضور الصحراء في الرواية الجزائرية: الاحتفاء بالإنسان على ذرات الرمل،

<https://www.alaraby.co.uk/diffah/herenow/29/4/2018/>

²⁶: إيمان عبد دخيل، بصريانا - ذاكرة المكان ومكان الذاكرة، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية ، جامعة

بابل، ع/22، 2015، ص: 587

²⁷: الرواية، ص:10

²⁸: أحمد مرشد، المكان والتطور الفني في روايات عبد الرحمان ضيف، دار العلم العربي، د/ط ، د/ت، ص:126

²⁹: الرواية، ص:114

³⁰: الرواية، ص:114

³¹: الرواية، ص:133

³²: الرواية، ص:15

³³: الرواية، ص:138

³⁴: الرواية، ص:12

³⁵: عبد الحميد شاكر، الوعي بالمكان ودلالاته، مجلة فصول، القاهرة، المجلد 4، ع/13، ص250

6: قائمة المراجع:

المؤلفات:

* أحمد مرشد، المكان والتطور الفني في روايات عبد الرحمان ضيف، دار العلم العربي، د/ط ، د/ت

*الأخضر بن السائح، سرد الجسد وغواية اللغة (قراءة في حركية السر الأنتوي وتجربة المعنى، عالم الكتب الحديث للنشر

والتوزيع، إربد، الأردن، ط/ 1، 2011

* ربيعة جالطي، نادي الصنوبر، منشورات ضفاف والاختلاف، ط/2، 2017

* مراد علوي، جدلية الحلم والواقع " في رواية شمس القراميد" لمحمد علي يوسف، الدار التونسية للكتاب، د/ط، 2013،

المؤلفات المترجمة:

* روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، تر: محمود الربيعي، دار المعارف بمصر، ط/2، 1975

المقالات:

* أحلام مناصرية، تقنية الاسترجاع في رواية " السمك ال يبالي " لإنعام بيوض، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة الإخوة منتوري

قسنطينة ، ع/51، جوان 2019

إيمان عبد دخيل، بصريانا - ذاكرة المكان ومكان الذاكرة، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية ، جامعة

بابل، ع/22، 2015

* حنينة طبيش، اشتغال الذاكرة في الكتابة النسائية، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد: 08 عدد: 02 السنة

- * سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية، دار التنوير، بيروت، ط/1985، 1
- * عبد الحميد شاكر، الوعي بالمكان ودلالاته، مجلة فصول، القاهرة، المجلد 4، ع/ 13
- * عبد الله شطاح، خطاب الذاكرة رهانات التخيل والتجنيس، مجلة المدونة، جامعة البليدة 2، الجزائر، ع/1، أكتوبر 2014
- * محمد صابر عبيد، جدل الذاكرة والمتخيل مقارنة في سرديات صبري يوسف ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، المملكة الهاشمية الأردنية، د/ط، 2016
- * مها حسن القصاروي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط/2008، 1
- مواقع الانترنت:
- * حميد عبد القادر، حضور الصحراء في الرواية الجزائرية: الاحتفاء بالإنسان على ذرات الرمل، 2018
<https://www.alaraby.co.uk/diffah/herenow/>،/29/4/2018/
- * عبد الرضا علي، 2020، دراسة في رواية (سيدات زحل) للطفية الدليمي تداعيات استعادة الذاكرة ومواقع تداخل الذاكرة الروائية، /2020/07/02/،
<https://kitabab.com/>